١ لحظات حَرَج وَرهْبَة

مررت خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢ في لحظة حرج شديد لعل الوقت حان للتحدث عنها.

عندما اقتَحم الإسرائيليون بلدة الدامور ثم قرية حارة الناعمة، حيث كان يقبع عدد كبير من المقاومين الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين، كنتُ وعائلتي لم نزل نقيم في منزلنا على ربوة «الدوحة» المطلّة على وادي الناعمة وبلدة الدامور والبحر المنبسط في الأفق الواسع. فشاهدنا، في نظرات استرقناها من خلال شقوق النوافذ، جحيم القذائف والنيران التي انصبّت على مواقع المسلّحين وعلى امتداد المساحات المحيطة بها، وشاهدنا النار تلتهم المساكن والمعامل والأشجار في كل مكان. شعرنا آنذاك بأنه لم يعد يفصلنا عن الاحتكاك مع الإسرائيلي المهاجم سوى ساعات معدودات.

كنّا أكثر الوقت إبّان تلك الواقعة نتجمّع في الجناح الشمالي من المنزل، واضعين بذلك بيننا وبين مصادر النيران المنطلقة من جانب القوات الإسرائيلية إلى الجنوب، لا أقلّ من ثلاثة جدران كنا نتّقي بها عواقب القذائف المتساقطة عشوائيًّا من حولنا. وشعرنا أن استهداف المنطقة التي كان يقوم فيها منزلنا بدأ يشتدّ ويعنف مع تكاثر المنسحبينَ من جحيم المعركة غير المتكافئة عبر منطقتنا ومن حوالينا. وقد كان انسحابهم مُنتظماً، إن صَحّ التعبير، فلم يطرقوا باباً ولا تعرَّضوا لأحد في طريقهم.

لم تمضِ ساعات حتى بتنا نسمع هدير الدبابات وناقلات الجنود الإسرائيلية تقترب منا، ثم تتوقّف لحظات لترشّ منزلنا والمنازل المحيطة والحدائق بوابلٍ من الرصاص ذي العيار الثقيل (عيار ٥٠٠). وكان عدد كبير من سكان «الدوحة» قد تجمّعوا في مكان واحد، داخل المنزل العائد لآل الخطيب في جوارنا، كي يؤنس واحدهم الآخر خلال ساعات الشدة التي تعرَّضت لها المنطقة.

أما نحن فقد انكفأنا جميعاً، أنا وقرينتي ليلى وابنتنا وداد والخادمة الفليبينية، والكلبة بين أقدامنا، في مطلع الدرج المؤدي إلى سطح البيت، اتّقاءً للرصاص المنهمر، وذلك باعتبار أنّ هذا المكان مسوّر بحيطان من الإسمنت المسلّح على جنباته الثلاث. وكان أزيز الرصاص، الذي كان يخترق جدران غرفة الطعام، يصمّ الآذان. وكانت ساعات صاخبة إذ كانت الآليّات العسكرية الإسرائيلية تتقاطر على الطريق الواقعة إلى الشمال من منزلنا، حيث غرفة الطعام. وقد اخترق بعض الرصاص المنهمر علينا جدارين أو أكثر من جدران البيت الداخلية، ورسا بعضه على السجاد العجمي المبسوط أرضاً، مُحْدِثاً فيه ثقوباً واسعة. أما المنزل المجاور، الذي تجمّع فيه عدد من أهل «الدوحة»، فقد أصابت طرفاً منه قذيفةٌ حارقة روّعَت مَن فيه، ولكنّ أحداً والحمد لله لم يُصَب بأذى. وقد أظهرَت زوجتي ليلى وابنتي وداد خلال هذه التجربة العصيبة شجاعة نادرة.

بعدما استتبّ للغزاة الإسرائيليين الأمر في منطقتنا، ركّزوا مدافعهم الثقيلة على الطريق الساحلية وعلى قمم بعض التلال من حولنا، وفتحوا معركة حصار بيروت الرهيبة. فراحت فوّهات المدافع الثقيلة تقذف حممها على المدينة الصامدة بلا هوادة. وكنا طوال ذلك الوقت نسمع، إلى قصف المدافع، هدير الآليّات المهاجِمة تتحرك في محيطنا المباشر جيئةً ورواحاً.

وفي لحظة هدوء نسبي، فوجئنا بتوقُّف هدير بعض الآليّات أمام منزلنا. وما هي إلا دقائق حتى كان ضابط إسرائيلي يطرق بابنا وإلى جانبه بعض أفراد قوى الأمن الداخلي اللبناني الذين كانوا يلازمونني ويرافقونني.

عَرّف الضابط الإسرائيلي عن نفسه بالعربية مُعلناً أن اسمه إبراهيم. وقال بِزَهْوٍ إنّ المنطقة جميلة، مردِفاً: «إنها أشبه بجبل الكرمل عندنا». فبادرَتْه زوجتي ليلى للتوّ مُصَحِّحةً بالقول: «جَبل الكرمل لنا وليس لكم». ولم يلبث أن طلب إليّ مرافَقَته لمقابلة قائد الجبهة الإسرائيلية، الذي كان متمركزاً على جانب الطريق الساحلية قبالة الدوحة.

أبيتُ أن أُغادِر أهلي ومنزلي، والتفتُّ إلى زوجتي مُستطلِعاً رأيها، فانتحت بي جانِباً وهمست في أذني ما مؤدّاه أنني إذا تخلّفت عن تلبية الطلب فإن القوة الغازية قد تتخذ من موقفي ذريعة لقصف منزلنا ودكّه فوق رؤوسنا، وهم لم يتورّعوا ولا يتورّعون عن أبشع من ذلك وأدهى. وأضافت القول: «لا تفرّط فينا».

لم أتردد لدى سماعي هذه الكلمة في مواجهة الضابط الإسرائيلي المنتصب على باب البيت فخاطبته قائلاً: «سوف أصحبك إلى حيث تطلُب. فلا حيلة لي في ذلك. ولكنني أصرّ على أن أستقلّ سيارتي الخاصة». فلم يمانع.

هكذا امتطيت سيارتي ومعي من أفراد قوى الأمن الداخلي المرافقين لي عبد الرحيم المصري وأحمد الحاج شحادة ووفيق العاكوم. وسرنا في موكب تتقدمه ناقلة جند إسرائيلية وفي المؤخرة ناقلة جند ثانية.

ما إن وصلنا إلى الطريق الساحلية المقفرة، إلّا من حركة كثيفة للآليّات الإسرائيلية، حتى شاهدنا خيمةً عسكرية منصوبة على جانب الطريق، مكشوفة على جنباتها الأربع، وفي وسطها طاولة خشبية مستطيلة، وعلى جانبيها مقعدان خشبيّان على امتداد الطاولة، وداخل الخيمة قائد الجبهة واقفاً على الجانب الآخر منها. وبالقرب من الخيمة مدفع بعيد المدى من العِيَار الثقيل مُوجَّه إلى العاصمة بيروت.

جلس الضابط الإسرائيلي على جانبٍ من الطاولة وجلستُ على الجانب المقابِل. ومن دون أية مقدِّمات سألنِي عمّا إذا كنتُ حقًّا رئيس وزراء لبنان السابق. فلمّا أجبته إيجاباً أردف قائلاً، بالإنكليزية، إنه يريد أن يفتح خط محادثات بواسطتي مع الحكومة اللبنانية، ويريد أن يحمِّلني رسالة إليها.

فرددت عليه قائلاً: «إن شئتم أن تبعثوا برسالة إلى الحكومة اللبنانية فلكم أن تفعلوا بوسائلكم الخاصة. أما أنا فلا شأن لي بنقل الرسائل منكم».

وعندما سأل عن الوسيلة المُتاحة، قلت له: «لعلّ لديكم حلفاء بين اللبنانيين يستطيعون أن يقوموا بالمهمة. أو لعلَّكم تستطيعون ذلك عن طريق السفير الأميركي في بيروت أو المبعوث الأميركي الخاص فيليب حبيب الذي يقيم في دار السفارة الأميركية. أما أنا فلا شأن لي بهذا الأمر». ومع تكرار الطلب أعدت على مسمعه الجواب إيّاه. فما كان منه إلّا أن حدجني بنظرة غريبة مريبة ثم التفت إلى الضابط الذي جاء بي وقال: «هذا كل ما في الأمر. دعه يعود إلى حيث كان». فتدخلت طالباً أن تتقدم ناقلة الجند سيارتي في طريق العودة كما فعلت في طريق القدوم، ظنًّا مني في تلك اللحظة أنني بذلك أتدارك اعتداء قد يُدبَّر لي في الطريق، كأنْ تُقصَف سيارتي ويُقال فيما بعد إنها أصيبت بقذيفة طائشة. وكان يجب أن أدرك أنهم لو شاؤوا شيئاً من ذلك لما عدموا وسيلةً لتحقيق مأربهم في أي حال.

خلّف هذا الحادث في نفسي أثراً عميقاً، فلم أعدْ أطيق البقاء في منزلي في «الدوحة»، حيث يستطيع الغُزاة الإلمام عليّ ساعة يشاؤون، والله وحده عليم بما قد يطلبون مني في المرة التالية فيما لو فعلوا.

بعد بضعة أيام عرّج علينا الصديق الهمام الدكتور حسن صعب ليتفقّد حالنا، وقد غامر في الوصول إلى منزلي في تلك الظروف الصعبة. فطلبت إليه أن ينقل إلى مفتي الجمهورية، المغفور له الشيخ حسن خالد، رجائي أن يتدخل لدى السفارة الأميركية لترتيب نقلي وعائلتي إلى بيروت، أسوةً بما تمّ للسيد وليد جنبلاط قبل حين. فقام الدكتور حسن بنفسه، رحمه الله، باسم مفتي الجمهورية، بالاتصالات اللازمة مع السفارة الأميركية عن طريق رئاسة الجمهورية. وسرعان ما جاءني من لدن السفارة الأميركية سكرتيرها الأول رايان كروكر (سفير الولايات المتحدة لاحقاً) يستقلّ سيارة تحمل إشارة السفارة، فاصطحبني وعائلتي إلى القصر الجمهوري، حيث توقفتُ لتحية الرئيس إلياس سركيس ولشكره على ما بذل في هذا السبيل. ثم تابعت السير إلى داخل بيروت المُحاصرة.

هكذا دخلنا عاصمة الصمود، بيروت، لنعيش تجربة حصارها الخانق من البداية إلى النهاية، متنقلين من منزل مُستعار إلى منزل مُستعارٍ آخر، نشاطر سائر أهل بيروت الميامين والمقيمين فيها كل العنَت الذي كانوا يلقون.

وخلال إقامتنا في «الدوحة» حتى تلك اللحظة اضطرت زوجتي للتوجُّه مرتين إلى بيروت لإجراء فحصٍ للدم في مستشفى الجامعة الأميركية، إذ إنها كانت تتناول مسيّلاً للدم بسبب داء القلب المستحكم فيها. فصحبتْها ابنتنا وداد في الرحلتين، كما صحبتْها في الرحلة الثانية صديقتها الحميمة وجارتنا السيدة شيرين عرب. وكانت الرحلة إلى بيروت في تلك الفترة شبه مغامرة. وفي المرتين حملت وداد بعضٍ الماء من بئرنا الخاصة في «الدوحة» إلى أهلنا في بيروت. فالمياه كانت قد قُطعت عن بيروت خلال تلك الفترة وأضحى الناس يفتقرون حتى إلى ماء للشرب. وتعرّض مسلَّحون، من الذين شاركوا الإسرائيليين مُحاصرة بيروت، لسيارتي في طريق العودة خلال الرحلة الثانية، وأسمعوا من فيها كلاماً جارحاً وقارِساً لم تسكت عنه ابنتي فردّت الكيل كيلين ولو بتهذيب كلّي.

وخلال تلك الفترة زارني الصديق الوفي الصحافي سمير منصور قادِماً من بلدته «مزبود» لتفقّد حالي، وعاد بعد ذلك إلى بلدته.

ولعلّ أفظع ما واجهت من التجارب خلال فترة إقامتي في الدوحة في ظل الاحتلال الإسرائيلي، وربما أكثر ما واجهت ترويعاً، كان لحظة أصرّت ابنتي وداد على مكالمة صديقة لها في بيروت للاطمئنان على حالها، وذلك من خلال هاتف مركّب في سيارتنا. فكان عليها أن تتوجّه بالسيارة إلى حديقة جارنا وصديقنا هاني سلام حيث يمكنها إخفاء السيارة عن مرأى الإسرائيليين المنتشرين في المنطقة، تلافياً لإثارة شكوكهم، وحيث يسهل إجراء الاتصال الهاتفي لكون المكان مطلاً على بيروت. ولم يكن أصحاب المنزل في لبنان آنذاك.

وفيما كانت وداد تُجري المكالمة تقدَّم منها شاب وشقيقته من الجيران وطلبا إليها أن تسمح لهما باستخدام جهاز الهاتف، فوعدتهما خيراً بمُجرّد

فراغها من المكالمة التي كانت تجريها مع صديقتها في بيروت. وفجأةٍ انهالت القذائف على منطقتنا من التنظيمات المسلحة في بيروت من غير ما تحسّب، سامحهم الله، إلى أن في المنطقة غير الإسرائيليين أيضاً. فسقطت بضع قذائف حولنا.

وفيما كنت وقرينتي ليلى، وفي جانبنا جارنا وصديقنا المغفور له غالب الترك، نقف على شرفة منزلنا وأبصارُنا مسمَّرة على المكان الذي توجَّهَت إليه وداد، إذا بنا نُصعق بدويٍّ هائل ثم نشاهد الدخان الأسود يتصاعد من المكان الذي كانت فيه. وإذا بزوجتي ليلى تصرخ صرخة الهلع والارتياع، وكادت تسقط أرضاً لولا مسارعتي إلى تلقُّفها بيديّ الاثنتين فيما قلبي يخفق خفقاناً عنيفاً.

هرع أحد المرافقين الأوفياء، عبد الرحيم المصري، في اتجاه مكان الانفجار. ولكن لم تمضِ لحظات إلا ووداد عائدة بالسيارة سليمة، وإنما بوجهٍ شاحب وعينين زائغتين. وما أن هدأ روعها حتى روت لنا تجربتها المريعة:

فيما كانت وداد تتحدّث على الهاتف خارج السيارة، والشاب وشقيقته في انتظارها على مسافة بضعة أمتار، إذا بقذيفة تسقط على مسافة قصيرة منها، ثم تعقبها للتوّ قديفة ثانية أصابت سيارة الشاب والفتاة فأحرقتها. وإذا بالفتاة المسكينة تمسك بيدها وهي تقطر دماً، وتصرخ متضوّرة ألماً، وأخذت تطوف على غير ما وعي حول سيارتنا تطلب النجدة. فسارعت ابنتي، ومعها الشاب والفتاة، إلى داخل منزل هاني سلام لتداري المزيد من القذائف، فاستقبلهم خادم سوداني بالقول أن ليس في المنزل مكان أمين إلا تحت سطح الأرض يصلح لاتّقاء شر القذائف. فاصطحب الشاب شقيقته مُسرِعاً إلى مستوصف عسكري كان الإسرائيليون نصبوه على سفح الربوة، واستقلّت وداد سيارتنا عائدة إلى المنزل. وكان عليها أن تُلامس النيران المشتعلة في السيارة المُصابة وهي تخرج مُسرعة من مكان الحادث. وكادت النيران تمتد لتسدّ الباب أمامها.

وتبيّن فيما بعد أن الفتاة سلمت والحمد لله، ولكنها فقدت إصبعين من أصابع يدها.